مؤخرة الجسم بخلاف الانسان فانه يتحرك من جانبه وشخص واحد فقط من جانب آخر فلا غرابة اذا كانت الاعين تنظر الى الشيء على هذا الاعتبار

وقبل ان نختم هذا الفصل نلتفت الى نوع من الشذوذ الخلقي الذي يمثل لنا هذه الحقيقة وهي انهُ حينما يطرأ على الانسان تقهقر في ترقيهِ بدل هذا التقهقر على درجة قديمة جدًّا من درجات الرقي وهذا الشذوذ الذي نلفت اليهِ نظر القارئ على الخصوص الظاهر بروز عظمي في العضد على بعد قليل من المرفق وهو في واحد من خمسين من شخصهم المشرحون . وقد اتضح لهم ان شريان العضد داخل وعصبهُ يمران تحت ذلك البروز العظمي . وهذا البروز تراهُ في اسلاف الحيوانات الثديية الحالية وهو كثيرٌ في الزحافات وبعض انواع الكركدن وكثير من الضواري . ولكنهُ لا يوجد في الحيوانات العليا الاَّ نادرًا فكثرة وجودهِ في الانسان تدل على انهُ رجع في بعض افراد الانسان كل سنة ارتقائهِ

فوائد من اخبار القضاة

ان الذين اطلعوا على ما اقتطفناهُ من اخبار القضاة رأوا فيهِ كيف ابتدأ وضع القوانين القضائية وما دخل محاكم القضاء من الحسنات والسيئات ورغبوا الينا في الاستمرار على ذلك لانهُ بمثابة تاريخ حقيقي لنشوء القوانين القضائية ففعلنا وقد احتفظنا بلغة المؤلف على قدر الامكان

اعيد المفضَّل الى القضاء سنة ١٧٤ بعد ان عُزل عنهُ سنة ١٦٩ وكان متهمًا بانهُ لا يقضي بالعدل وقد نبَّههُ بعضهم بقولهِ

اتق الله وارفُد واتَّئد يا مفضَّلُ	فانك عن فصل القضاء مسؤَّلُ
وانك موقوف بهِ ومحاسبٌ	فدينك فانظر كيف في الحكم تفعلُ
اني العدل ان أقصى وأخرج متعبًا	وتدخل بفضلٍ منك خصمي ويدخلُ
وتقبل منهُ سحت مغبي شهودهُ	ويأتي ليست اذا غاب تقبلُ

ولقيهُ رجل بعد ان عُزل فقال حسبك الله قضيتَ عليَّ بالباطل وفعلتَ وفعلتَ فقال لهُ المفضل لكن الذي قضينا لهُ يطيِّب الثناء . فلما اعيد الى القضاء جعل كاتبهُ فُلَيح بن القمري فتحدث الناس انهُ كان يرتشي من اقوام ليذكرهم بالعدالة فان المفضل رسم اقوامًا بالشهادة فكانوا عشرة رجال فرأى الناس ان قد أتى امرًا عظيمًا فقال فيهِ بعضهم

سئلت لنا الجور في حكمنا وصيّرت يوماً خصوصاً عُدولا

اي انهُ اقام للشهادة اناساً يشهدون للخصوم او عليهم كما يرى في بعض المحاكم الآن فهذه الحيلة قديمة مضى عليها الآن اكثر من الف ومئة سنة . ويقال انهُ لم يكن احد من القضاة اقوم منهُ بامور اليتامى وسُمع مرةً يقول ولي اليتيم كابيهِ ويُروى انهُ كان يجبر اذا جاءهُ رجل قد انكسرت يدهُ جبرها لهُ وصُرف عن القضاء سنة ١٧٧ !

وولي بعدهُ محمد بن مسروق الكندي وكان اعور فاظهر تجبراً عظيماً وباعد الخصوم وكان ولاة مصر يُحضرون القضاة الى مجالسهم كما يُحضَر الفقهاء اليوم فلما قدم ابن مسروق ارسل اليهِ الامير عبدالله بن المسيَّب يأمرهُ بحضور مجلسهِ فابى وبعث اليهِ بشقهِ فانقطع ذلك عن القضاة من يومئذٍ

وكانت اموال اليتامى والاوقاف[1] والغُيَّب ترد الى بيت المال منذ زمن المنصور الى ايام الرشيد فلما ولي محمد بن مسروق تحايل على اهل مصر فاساؤوا عليهِ الثناء والذكر واشاعوا عليهِ انهُ عزم على حمل ما في بيت المال من هذه الاموال الى هرون (الرشيد) فقام ابراهيم الحوفي وكان مقرئاً فنادى في المسجد الجامع ودعا على ابن مسروق فاحضرهُ ابن مسروق ونالهُ بمكروه فزاد اهل مصر في مقت ابن مسروق . ولما اكثر اهل المسجد من ذمهِ وقف على باب المقصورة ونادى باعلى صوتهِ اين اصحاب الاكسية العسلية اين بنو البغايا لم لا يتكلم متكلم بما شاء حتى يرى ويسمع . فما تكلم احد بكلمة . وهو اول من ادخل النصارى المسجد الجامع في خصوماتهم . ولم يكن للقضاة قَطْر[2] في ما مضى انما كان كاتب القاضي يحضر ومعهُ الكتب في منديل فاول من جعل لهُ القطر بمصر ابن مسروق فكان يختمها فتودع فاذا جلس احضرت . وخلفهُ على القضاء اسحق بن الفرات سنة ١٨٤ وهو اول مولّى[3] ولي القضاء بها وهو من اكابر اصحاب مالك وكان قد تفقه بابي يوسف واخذ عنهُ . ثم صُرف عن القضاء سنة ١٨٥ وخلفهُ عبد الرحمن بن عبدالله العمري فركب طريق ابن مسروق باتخاذ الشهود وجعل اسماءهم في كتاب وهو اول من فعل ذلك واسقط سائر الناس . ثم فعلت ذلك القضاة من بعدهِ وكان من اشد الناس لعبرة الاحباس كان يقف عليها بنفسهِ ويجلس مع البنائين اكثر نهارهِ ولكنهُ كان متَّهماً بانهُ اغنى اصحابهُ وفيهِ يقول يحيى الخولاني

(١) هذه اول مرة وردت فيها كلمة اوقاف ويظهر من الفرنجة انها ترد بها الاموال الموقوفة متى بطل من تصرف اليه الاوقاف بمعناها الحالي فكانت تسمى احباساً كما تسمى الآن في تونس والجزائر

(٢) خزانة الكتب (٣) اي ولي هذا المنصب او المعنى او من كان من اخلاف العرب وليس منهم

تُسيء امراء البتامى جوازاً لاصحابه حتى استقرضوا واتربوا

وله قصة طويلة في اناس من القبط ادعوا انهم عرب فأيّد دعواهم . وقد هجاهُ يحيى الحولاني لانهُ كان يحب الغناء ولم يكن في مصر سنة الاّ ركب اليها ليسمع غناءها ودرى نوّم ما انكسر من غنائها قال يحيى الحولاني

ألا قُلْ فاندب العربا وَبكِّ الدين والحسبا
ولا تشمتْ بنو العمـ ـرّ لمّا بان فاغتربا
لقد احسنَ قاضي السـو ء في قطاعنا عجبا
يظلُّ نهارهُ يقضي بعين العدل منتصبا
ويسهر ليلهُ لهما عن القينات والطربا
ويشربها معتقةً عُقاراً تشبه الذهبا
ويعجبهُ سماع العود والمزمار يا عجبا
فيا لناس من قاضٍ يحب اللهو واللعبا

والظاهر انهُ كان يعاقر الخمرة ويستحل اموال الايتام فقد قال المؤلف « حدثنا محمد ابن يوسف قال حدثني ابو سلمة قال حدثني ابي عن ابيهِ قال اتيت العمري بعد قيامهِ من مجلس حكمهِ فاستأذنت عليهِ فاذن لي فدخلت وهو مضطجع وقد ترجّل وصفّر يديهِ وكحّل عينيهِ واتّشح بازار معصفر وادّهن بملاب وهو يضرب باصابع يديهِ بعضها على بعض ويقول

كأني من تذكّر ام عمرو سَرَت بي قرقف صرف مدامُ

وقال ايضاً « حدثنا محمد بن يوسف قال حدثني قيس بن حملة الغافقي قال حدثنا ياسين عن ابيهِ ان العمري جعل اموال الايتام الى يحيى بن عبد الله ابن بُكَيْر فكان يبدو منها مال عظيم فاشترى بهِ الرباع والنخيل واقبل يستغلها ويدفع الى الايتام من تلك الغلّة ما يستنفقونهُ ويحسب عليهم بالذي يدفعهُ اليهم من اصل المال فلما صارت اليهم رؤوس اموالهم ادّعى يحيى الاصول وقال هي لي فخوصم عند العمري فقال لا براءة لكم بشيء هي اموالكم استهلكتموها . فلما قدم البكري (القاضي الذي خلفهُ) خوصم يحيى اليهِ فامر بهِ فربط على العمود المقابل لباب اسرائيل ونودي عليهِ هذا جزاء كل خائن . فاقام ايامًا يُحلّ رباطهُ وقت كل صلاة »

والعمري اول من عمل تابوت (صندوق) القضاة الذي كان في بيت المال وكانت تجمع فيهِ اموال اليتامى ومال مَن لا وارث لهُ وكان مودع القضاة بمصر . وصرف عن القضاء سنة ١٩٤ وخلفهُ هاشم بن ابي بكر البكري من قبر محمد الامين وكان من اهل الكوفة يذهب

بمذهب ابي حنيفة فتتبع اصحاب العمري كلهم وسجنهم وسجن العمري وقيده وطالبه بما صار اليه من اموال الاوقاف وغيرها . وزعم اهل مصر ان العمري اكتسب مائة الف فطالبه البكري بها وعرّفه وجوهها ثم هرب العمري من السجن ليلاً فلم يدرك فقال يحيى الخولاني

هرب الخائن ليلاً فجنح واقى امراً قبيحاً فافتضح
هاربٌ تحمله ناجية يصل الادلاج عدواً بالرَّوَح

واسقط البكري انساب القبط الذين ادعوا انهم عرب . وقد اهتم المؤلف بذلك اكثر مما اهتم بكثير من امهات المسائل القضائية وذكر اقوال الشعراء فيه ويظهر منها ان العرب كانوا يحتقرون القبط حينئذٍ احتقاراً شديداً كأنهم ليسوا من سلالة آدم ولا من نسل الفراعنة مشيدي الاهرام والهياكل وكل ما يدل على عظمة مصر وكونها مهد الحضارة فقد قال شاعر ذلك العصر يحيى الخولاني في هجو العمري

انهُ قد كان يقضي بالهوى ويبيع الحكم جوراً ويهب
واذا يخلو حساها مرّة مثل عين الديك من ماء العنب
ما كفتهُ رشوة ظاهرة وقضايا الجور كم فيها عجب
أن اتى اعظم ما يأتي به احدٌ ان صيّر القبط عرب

والظاهر ان البكري لم يكن من عداة الخمر فقد قال المؤلف « حدثنا محمد بن يوسف قال حدثني عبد الوهاب بن سعد قال حدثني محمد بن عمرو بن خالد قال حدثني ابي قال كان هاشم ابن ابي بكر لا يجلس الى القضاء حتى يتغدّى ويشرب ثلاثة اقداح نبيذاً » . اقام على قضاء مصر سنة ونصفاً وتوفي وولي القضاء بعده رجل من اصحاب الامير جابر بن الاشعث يقال لهُ ابرهيم ابن البكاء ثم وثب الجند بالامير جابر فخلعوهُ فصُرف ابن البكاء عن القضاء وولية طيبة بن عيسى الحضرمي ثم عزل بعد ان اقام على القضاء من سنة ١٩٦ الى سنة ١٩٨ وخلفهُ الفضل بن غانم وكان كبير اللحية جدّاً فكان يجعل في لحيته عوذةً خوفاً من عين طيبة كان يفعل ذلك يوم الجمعة اذا خطب . لحية كبيرة وعقل صغير ومع ذلك اجرى عليه الوالي ١٦٨ ديناراً كل شهر او نحو ١٣٣٠ جنيهاً في السنة اي اكثر من راتب مستشاري الاستئناف الآن ولكنهُ لم يقم في القضاء الاَّ سنة او نحوها واعيد طيبة بن عيسى الى القضاء سنة ١٩٩ وجعل في مسائلهِ سعيد بن تليد وامرهُ ان يجدد الرّأن عن الشهود والموسومين بالشهادة في كل ستة اشهر فمن حدثت لهُ جُراحة اوقفهُ . وممّا يذكر لهُ انهُ قضى في احباس مصر كلها فلم يبقِ منها حُبْساً حتى حكم فيهِ اما ببينة ثبتت عندهُ واما باقرار اهل الحبس وجدد ما كان في

يدي القضاة منها وما كان في يدي اهلها . واقام في القضاء الى ان مات سنة ٢٠٤

ومن غريب ما خصَّ المؤلف بالذكر ونبَّه الافكار لهُ ان تسعة من قضاة مصر كانوا حضارمة اي من اهل حضرموت . وولي قضاءه برقة جمع من حضرموت وكان منهم قضاة في الاندلس وفلسطين وحمص ودمشق وفي ذلك يقول يزيد بن مقسم الصدفي

يا حضرموت حنيتٌ ما خصصت بهِ ... من الحكومة بين العجم والعربِ
في الجاهلية والاسلام يعرفهُ ... اهل الرواية والتفتيش والطلبِ

وقال ان معاوية كتب الى مسلمة بن مخلد وهو على مصر لا تولِّ عملك الا ازديًّا او حضرميًّا فانهم اهل الامانة

ثم ولي القضاء ابرهيم بن اسحق القاري من قبل السري بن الحكم والي مصر وجمع لهُ القضاء والقصص . واختصم اليهِ رجلان في شيءٍ فامر على احد الرجلين فشفع الرجل بابن ابي عون الى السري فامرهُ السري ان يتوقف في الحكم فان اصطلحا والاَّ حكم بينهما فجلس ابرهيم في منزلهِ فركب اليهِ السري وسألهُ الرجوع فقال لا اعود الى ذلك المجلس ابدًا ليس في الحكم شفاعة فولَّ السري ابرهيم بن الجراح

ذكر المؤلف انهُ لما ولي عبد الله بن طاهر امر باحضار اهل مصر لحضر الناس فقال لهم ان جمعي لكم لترتادوا لانفسكم قاضيًا فتكلم يحيى بن عبدالله بن بكير وقال ايها الامير ولِّ قضاءها من رأيت وجنبنا رجلين لا تولِّ قضاءنا غريبًا ولا زرَّاعًا يعني بالغريب ابرهيم بن الجرَّاح وبالزرَّاع عيسى بن فليح . فنهض ابرهيم بن الجرَّاح وكان حاضرًا فقال اصلح الله الامير رجلٌ من ابناء الدولة قديم الخدمة فلم يسمع ابن طاهر الى كلامهِ ثم تكلم ابو ضمرة الزهري فقال اصلح الله الامير اصبغُ بن الفرج الفقيه العالم واصبغ حاضر المجلس . فعارض ابو ضمرة سعيد بن كثير بن عفير . فقال اصلح الله الامير ما بال ابناء الصباغين والمقامصة يذكرون في المواضع التي لم يجعلهم الله عزَّ وجلَّ لها اهلاً . فقام اصبغ فاخذ بمجامع ثوب سعيد بن عفير وقال انَّ انت شيطان ومن اين علمت اني من ابناء الصباغين . وارتفع الامر بينهما حتى كادت تكون فتنة . فذكر عبد الله بن عبد الحكم عيسى بن المنكدر فاثنى عليهِ بخير فقلدهُ ابن طاهر القضاء

وفي رواية اخرى لهم المؤلف ان سعيد بن عفير قال لعبد الله بن عبد الحكم في اصبغ ليس هذا الرجل كما وصفت هذا رجل بذي طويل اللسان وتمجع في وصفهِ . فقام اصبغ فقال ان الامير امر ان يحضر في مجلسهِ الفقهاء واهل النحو لا الشعراء ولا المكهنة

ولما ولي ابن المنكدر القضاء قال ابن عبد الحكم للعراقي انا مقل فقير فاجرى عليه سبعة دنانير كل يوم فجرت في القضاء الى اليوم اي الى زمن المؤلف اي اربعة آلاف درهم في الشهر وهو اول قاضي اجري عليه ذلك وهي نحو ٥٠ جنيه في السنة واجازهُ بالف دينار

ولقد كان الناس يدعون في ذلك لتقلد القضاء فيعربون منهُ ويحسبون انهم هالكون به فصاروا حينئذٍ يتهافتون عليه تهافتاً لكثرة ربحه

ويظهر من القصة التالية ان ابن المنكدر اول من عاقب المحكوم عليه في الامور المدنية قال المؤلف « حدثنا محمد بن يوسف قال حدثني ابو مسعود عمرو بن حفص قال حدثني ابي قال خاصمت الى عيسى بن المنكدر فسال على خصمي ثم قال لي ابصق في وجهه فتوقفت فقال والله لاحكمت لك او تبصق في وجهه قال ففعلت فقال له اذلك الحق ثم قادفع اليه حقهُ » فلم يكتف بالحكم على المدين بدفع حق الدائن بل اهانهُ اهانة تقرب من حبسهِ

ودخل الامام الشافعي مصر في زمن عيسى ابن المنكدر قال المؤلف في ذلك « حدثنا محمد بن يوسف قال اخبرني ابن قديد عن يحيى بن عثمان ان عيسى بن المنكدر كان دخوله الى مصر قديمًا قال يحيى فاخبرني احمد بن عبد الرحمن بن وهب قال سمعت ابن المنكدر يصيح بالشافعي والشافعي يسمع يا كذا دخلت هذه البلدة وامرنا واحد ورأينا واحد فرقت بيننا والقيت بيننا الشر فرّق الله بين روحك وجسمك » وفي التخليص وفي رفع الاصر ان ذلك لمخالفة متبعيهِ مالكاً فان الناس في مصر قبل الشافعي لا يعرفون الا رأي مالك

وذكر اسم الصوفية اول مرة في خبر ابن المنكدر هذا قال المؤلف انهُ كان لابن المنكدر طائفة قد احاطت بهِ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وانهم قالوا لهُ ان امير المؤمنين المأمون قد ولّى ابا اسحق بن الرشيد مصر فاكتب لنا كتابًا الى المأمون بانك لا ترضى بولايتهِ ثم قال بعد ذلك ان اصحابهُ الصوفية كلموهُ لما علموا ان ابن طاهر قد صرف عن مصر وصار الامر الى ابي اسحق ليكتب الى المأمون لكراهية ولاية ابي اسحق

ولا تنذكر ان اسم الصوفية ذُكر قبل ذلك التاريخ وهو سنة ٢١٤ للهجرة . ثم ان ابا اسحق صرف ابن المنكدر عن قضاء مصر تلك السنة وامر باخراجهِ الى العراق فسجنهُ هناك فتوفي وبقيت مصر بلا قاضٍ . وجاء الخليفة المأمون الى مصر حينئذٍ وامر يحيى بن اكثم بالجلوس في المسجد للقضاء فجلس وقضى بين الناس لكن المأمون تشاغل بحربهِ وخرج من مصر ولم يولِّ عليها قاضيًا وبقيت كذلك الى ان تولى القضاء هرون بن عبد الله من قبل المأمون في رمضان سنة ٢١٧